أسئلة حائرة يجيب عليها العلاّمة محمّد اقبال

*إنعام الحق غازي

Abstract

Attempts to touch a select questions that have been pinching Muslim minds throughout post-colonial and postmodern eras, especially in the backdrop of new world order & globalization.

Based on a perceived dialogue, it tries to get the answers or responses from him, deciphering some relevant poetic & prose writings, especially in Urdu and English languages.

The raised questions have been grouped in two bunches. Prevailing unrest…in the third world countries in general & In the Muslim countries in particular. The second bunch of the questions is related to remedies proposed by Allama Iqbal in similar situations.

The article ends with the questions raised by Allama Iqbal which are too pinching. These questions may be considered the conclusion of this article.

The article originated as the fruit of my presentation in an international seminar held at International Islamic university Islamabad, Pakistan.

ملاحظة:

ألقى هذا المقال العلميّ فى ندوةٍ أقيمت بمناسبة ميلاد العلامة محمّد اقبال، بالجامعة الاسلامية العالمية اسلام آباد، باكستان. ويتخيّل هذاالمقال لقاءً- وجهاً بوجهٍ- مع العلامة محمّد اقبال، بحيث يطرح كاتب هذه السطور المتواضع أسئلة تحيّر العقول (ولاسّيماالعقول المسلمة). وتلى هذه الأسئلة محاولة عرض اجاباتٍ لها وذلک بالاستمداد بكلامه الشعرى وكتاباته النثرية.

يدرك دارسو العلاّمة محمّد اقبال أنّ حياته الفكرية تتميّز بطرح أسئلة متدفّقة وتساؤلاتٍ مضطربةٍ و جريئةٍ كانت تحيّر كثيراً من النّاس كما أنّها كانت تسبّب مشكلاتٍ لبعضٍ منهم. والمعلوم أيضاً أنه قضي مدةً طويلةً يقتل أبحر العلم الشرقية والغربية بحثا عن العثور على إجاباتٍ؛ فتارة نراه يتوجّه بهذه الأسئلة إلى الفلاسفة الغربيين وتارة أخرى نجده يلجأ إلى المفكرين والشعراء الشرقيين إلى أن نراه يأوي إلى الهيكل الفكري والروحي للشيخ مولانا الرومي الذي يعتبره إقبالنا مرشداً له.

ليس هذا فقط بل نجده يرفع الأسئلة إلى جناب الرب الكريم ، أحيانا في شكل قصائد كما في قصيدتيه المشهورتين بعنوان "الشكوى" و " پير ومرشد" أي الشيخ ومريده ، وفي أحايين أخرى يرفع إليه الأسئلة في صورة أبيات تتناثر في شعريه الأردي والفارسي مثلما يقول فى شعره الأردى:

*أستاذ مساعد/ مسئول قسم الترجمة والترجمة الفورية بكليّة اللّغة العربية الجامعة الإسلامية العالميّة إسلام آباد

خداوندا ! یہ تیرے سادہ دل بندے کدھر جائیں؟
کہ درویشی بھی عیّاری ہے سلطانی بھی عیّاری(1)

أي:

أيّها الرب الكريم : أين يأوى عبادك البسط المخلصون ؟
فالدّرْوشة والصوفية مكرٌ وخداع والملكية مكرٌ وخداع

وثمّة أسئلة حولنا- ولها صلة وثيقة بحياة الأمّة و الشعوب الاسلامية فى هذا الزمن- تزعج كلّ من لديه احساس مرهف وعقل متأمّل يرغب فى الوصول الى كنه العلل والأسباب ------ فأردت أن أتخيّل لقاءً مع العلاّمة محمّد اقبال وأعايشه هو وأدبه- قدر استطاعتي، وذلك لأن المعايشة في فكره أمرٌ ليس سهلا- وأعرض عليه بعضاً من هذه الأسئلة لعلّ اجاباته تفيد هذه الأمّة وشبابها-

وخلال هذه المعايشة خُيِّل إليّ وكأنّني معه في بيته في مدينة سيالكوت (وهي مدينتي أنا أيضاً) بل وفي حجرته التي ولد فيها وغرفته الدّراسية التي ما زالت تحتفظ بذكرياته وأدواته وكتبه.

وأمّا الأسئلة فهى متعددة وذات جهات متنوّعة قمت بالتصرّف فيها وإعادة صياغتها ثم وضعتها في عناقيد أو مجموعات واخترت منها عنقودين فقط وعرضتهما على العلاّمة إقبال وعلى فكره- وها أنا أقدّم لحضراتكم بعض ما انبثق لي من ردود وإجابات من ينبوعه:

وعنقود الأسئلة الأول الذي تفوّهت به في صحبته هو:

ما الحرّية؟ وما العبودية؟
هل نحن المسلمين أحرار؟
كيف ولماذا تسرّبت العبوديّة فينا؟
وكيف يمكن لنا أن نتحرّر من هذا الرقّ؟

فطلع – بادئ ذي بدءٍ – بيته الشعري الذي يوضّح فيه تصوّره للحريّة وكأنّه ينشده لي– يقول:

ترے آزاد بندوں کی نہ یہ دنیا نہ وہ دنیا
یہاں مرنے کی پابندی وہاں جینے کی پابندی(2)

أي

لا تصلح لعبادك الأحرار هذه الدنيا ولا تلك
فهم متقيّدون بالموت هنا ومجبرون على الحياة هناك

وذلك لأن التقيد أي العبودية من خصائص الأشياء-

و يقول في بيت آخر :

تتقيّد النّباتات والجمادات بالقضاء والقدر
والمؤمن لا يتقيّد إلاّ بأوامر الله [3]

ثم حوّلني إقبال من معنى الحرّية إلى معنى الحرّ وقال:

ملے گا منزل مقصود کا اسی کو سراغ
اندھیری شب میں ہے چیتے کی آنکھ جس کا چراغ

میّسر آتی ہے فرصت فقط غلاموں کو
نہیں ہے بندۂ حر کے لیے جہاں میں فراغ [4]

أي:
سيصل إلى الهدف المنشود المرموق
الذي يتمتّع بعين النمر في الليل الدجى
والراحة تتوافر للعبيد فقط
وليس للعبد الحرّ في العالم فراغ

وذكّرني إقبال بالرّبط الجذريّ بين الحريّة وفكرته المحوريّة "خودي" أي معرفة الذات أو النفس، فقال إنّ:

"الخودي منبع الحرية والحياة ،وهيو مصدر الوحدة والوجدان والشعور، وهو الذي يجمّع القوات المشتّتة في الإنسان ويضعها في سلسلة منظّمة" (5)

والسّبب في ذلك أن العالم كما يقول في أبيات شعرية:

جہان تازہ کی افکار تازہ سے ہے نمود
کہ سنگ و خشت سے ہوتے نہیں جہاں پیدا

خودی میں ڈوبنے والوں کے عزم و ہمت نے
اس آبجو سے کئے بحر بے کراں پیدا

وہی زمانے کی گردش پہ غالب آتا ہے
جو ہر نفس سے کرے عمر جاوداں پیدا(6)

أى:
ينمو العالم بأفكار نضرة
فلم تنشأ العوالم بالحجر والطّين
إن الذين غاصوا في الخودي بعزائهم
أبدعوا بقطرات من الماء بحورا متدفقة
فالذي يقدر على خلق الحياة السرمديأة بكل نَفَس
يغلب على الدّهر ويسيطر

والخودي كما يقول في بيت آخر:
"تحوّل الخردلة إلى جبلٍ، ويصير الجبل بدونها خردلاً" (7)
ثم التفت إقبال إليّ قائلا : تسألني في العبودية والرقّ؟ افهم منّي معناها واستمرّ قائلاً:
ما العبودية؟ العبودية أن يحرم الإنسان عن تذوّق الجمال والحسن
فالذي يُسمِّيه الأحرار الجميل هو الجميل
وإننا لسنا نثق في نظر العبيد
فعين الأحرار هي التي تبصر فقط في العالم-
وهنا خطر ببالي: : هل تكون حياة العبيد خالية من العلم والشعر والفن؟
أدرك إقبال هذه الخاطرة وقال:
"لا تخلو حقب الدهر للأمم العبيدة
من شعراء وعلماء وحكماء
ورغم أنّ كلاً منهم يتفرّد في شرح المعاني
إلاّ أنّ هدَفهم، هداهم الله، أن يغرسوا في الأُسُد خوف الظباء
والغرض من كلّ ذلك أن تزول الأسديّة منهم-
وهؤلاء (الشعراء والعلماء والحكماء) يصرفون طاقاتهم في جعل العبيد راضين بالرقّ. ويتستّرون في سبيل ذلك وراء مناقشة المسائل"[8]
ثم أنشد لي إقبال بعض أبيات قطعته الشعرية التي عنونها بـ "مناصب"
يقول:

ہوا ہے بندۂ مومن فسونیٔ افرنگ
اسی سبب سے قلندر کی آنکھ ہے نمناک
شریکِ حکم غلاموں کو کر نہیں سکتے
خریدتے ہیں فقط ان کا جوہر ادراک(9)

أي
صار العبد المسلم مخدوعا بسحر الإفرنج
فالدموع تفيض من عين القلندر (والأغلب أنه يقصد نفسه)
ومن المستحيل أن يُشارَك العبيد في الحكم
والغرض من هذا (أي توزيع المناصب بين كبار أمة)
هو شراء قوّاتهم المدركة فقط ـ
هنا بدأت أتذكّر ما يقول لنا دارسو إقبال بأن ملحمته الفارسية المسماة بـ "جاويد نامه" (رسالة الخلود) من أحسن إنجازاته وهو نفسه قد قال: "قد صرَّفت نفسي في إنشائها" [10].
بينما كنت في هذا التفكير أمرني إقبال بقراءة ما كتبه في نهاية "جاويد نامه" بعنوان
"إلى جاويد (وهذا اسم ابنه) والأجيال اللاّحقة"
فقرأته يقول:
"انتهى الكتاب ولكنّني أريد أن أقول ما لا يمكن تعبيره، ومحاولة التعبير عنه يجعله أكثر تعقيداً لأنّ الأصوات والكلمات تلطّخه"
ثم يقول مخاطباً ابنه والأجيال اللاحقة:
"إنّ قولك "لا إله إلا الله" يعني ألاّ تذلّ نفسك أبداً أمام أيّ واحدٍ أو أيّ شيءٍ في العالم، وذلك لأنّ الذي لا يثق في نفسه كافرٌ أسوأ من الذي لا يؤمن بالله"

واستمرّ قائلاً :
"يبثّ أساتذتنا في أذهان الشّباب جميع الرّسالات الخاطئة بحيث يزيحون الموجة الفطرية من الروح- فخذ هذا منيّ بأنّ العلم كلّه غير مفيد إلاّ أن يكون ذات صلة جذرية بحياتك والسبب في ذلك أنّ هدف العلم هو أن يبرز لك روائعك المستكنّة فيك" (11)
ففي هذه اللّحظة اجترأت قليلا وتمكّنت من همس الجزء المهمّ من هذا العنقود للأسئلة وهو:
كيف يمكن لنا أن نتحرّر من هذه العبودية؟
فوجدته يشير إلى أشياء كثيرة في شعره ونثره بالإضافة إلى بعض ما مضى من كلامه – كما أنّني وجدته ينصحني بقراءة محاضرته بعنوان:
The principle of movement in the structure of Islam (12)
أي: أساس "الحركة في بناء الإسلام حيث درس فيها موضوع الاجتهاد دراسة مفصّلة وقال إنّ الإسلام رفض النّظرة الراكدة القديمة تجاه الكون وقدّم نظرة فعّالة متحرّكة- وانتهى من ذلك إلى ضرورة الاجتهاد الفقهيّ والفكريّ ذاكراً فيها أنّ العقلَ المسلمَ أصيبَ بنوع من Intellectual Laziness (13) أي الكسل العقلي وهو المرض الذي يحوِّل المفكّرين الكبار إلى أصنام يُتعبَّد بها وخاصّة خلال عصور النّدهور الروحي لدى الأمم.
وعندما أحسّ إقبال بأن قراءة هذه المحاضرة ستكون مثقلة عليّ وذلك لقلة الموهبة والاستعداد الفكري لديّ ،فعندما رأى ذلك بدأ ينشد أبياته:

ترے دریا میں طوفاں کیوں نہیں ہے ؟
خودی تیری مسلماں کیوں نہیں ہے ؟
عبث ہے شکوۂ تقدیر یزداں
تو خود تقدیر یزداں کیوں نہیں ہے ؟ (14)

أي:

ما لك لا يو جد الطّوفان في نهرك؟
وما لك خود يك ليست مسلمة ؟
شكواك من قسمة الله عابثة
ما لك لا تصبح أنت قدر الله

ثمّ قال:
كس طرح ہوا كند ترا نشتر تحقيق؟
ہوتے نہیں کیوں تجه سے ستاروں کے جگر چاک؟(15)

أى:
كيف كلَّ مشرط بحثك؟
ما لك لا تمزّق أكباد النجوم؟

ثمّ أعاد سؤالي قائلاً: تريد أن تتحرّر من العبودية ؟ وأنشد:

قناعت نہ کر عالم رنگ و بو پر
چمن اور بھي آشياں اور بھي ہيں
اگر کھو گيا اک نشيمن تو کيا غم
مقامات آہ و فغاں اور بھي ہيں
تو شاہيں ہے ، پرواز ہے کام تيرا
ترے سامنے آسماں اور بھي ہيں(16)

أي:
لا تقنع بعالم اللّون والرائحة
فإنّه يوجد بساتين ووُكر أخرى
أنت الصّقر ودأبك الطيران
وأمامك سماوات وآفاق أخرى
ثم قال إقبال:
"أرى شباب هذا العصر يتحدّثون كثيرا عن المهدي – أي تجسيد القوة- وأمَّا أنا فأنصحك أن تترك انتظار المهدي بل اِذهب واخلقه". (17)
وحذّرني قائلاً:
الحياة هي التعبير مثل فنون الشّعر والرسم
فالتأمّل بدون العمل هو الموت
وذلك لأنّ :
قاضي القدر قد فصل منذ الأزل
يعاقب الضعف بموت مفاجئ (18)
هنا تدخّلت وأسرعت في طرح عنقود الأسئلة الثّاني وقلت:
ما هذا الذي يحدث الآن في العالم من فتنة وفساد وهدمٍ و تخريبٍ؟
ومن المسئول عن ذلك كلّه؟
وماذا يجب أن يفعل الشباب تجاه ذلك؟
عندما سمع إقبال هذا ابتسم ابتسامة ثمّ سكت وطالت إليَّ نظرته العميقة الحكيمة التي تحاول أن تخفى الاضطراب والتألّم.. فكدت أنسحب عن مسألتي هذه إلاّ أنّه بادر بالكلام وقال:
أنا أحكي لك ما قلته مرّة، فافهم منيّ إن استطعت؟
في سنة 1933م دُعي رؤف بے، أحد مفكري التركيا آنذاك، إلى الهند وذلك لإلقاء سلسلة من المحاضرات بدهلي، ودُعيت أنا أيضا للمشاركة فيها؛ ففي اليوم العشرين من مارس في هذه السنة ألقى الأستاذ رؤف بے محاضرة وطُلب منّي التعليق عليها فقمت وقلت:
"لا أريد أن أعلّق على هذه المحاضرة ولكنّي أودّ أن أحكي لكم فكاهة وهي:
ذات مرة رأى أحد الأشخاص الشّيطان مستريحا على الكرسي يدخّن السيجارة في هدوءٍ واطمئنانٍ، فتعجّب هذا الشخص من هذا المنظر وسأله قائلاً: معالي السيّد الشيطان! ما هذا؟ حضرتك تجلس هنا تدخّن في اطمئنانٍ؟ فمن ذا الذي يفسد الدنيا ويسفك الدماء في العالم؟ أجاب الشيطان بكلّ طمأنينة وقال: لا تشغل بالك أيّها الأبله، فأنّني قد فوّضت هذه الخدمة لمجلس الوزراء البريطاني!" (19)

فتهيّأتُ على الضّحك ولكنّه قال لي:
أيّها العزيز:
لا يسقط الصقر من تعب الطيران
فلا تخشى مخاويف النّوازل ما دمت مليئا بالحيوية(20)
هنا بدأت أفكّر في طرح الأسئلة الأخرى التي تقلقني كثيرا ولكنه ودَّعني بسرعة قائلا:
"أدعو الله أن يبتليك بالطّوفان
فإنّ أمواج بحرك تخلو من الاضطراب
ولا يمكنك أن تتخلّى عن الكتاب
لأنّك قارئ الكتاب ولست صاحبه"(21)
وخلال خروجي من هذا اللقاء سمعته يقول لي: عندما تشرّفني بلقائك في المرّة القادمة حاول أن تأتي مجهَّزا بأجوبةٍ لأسئلتي وهي:
هل تفهم ما قلته في الشعر والنثر؟
هل يفهم الناس رسالتي؟
لم لا أجد آثار رسالتي في حياتكم ولاسيما في قوّاد هذه الأمة؟
أطلِقَت عَليّ تسميات وألقاب كثيرة ولكن الشعب بعيدٌ كلَّ البعد عن المزايا والصفات التي حاولت أن أبثَّ فيه؟
وأنتم تصرفون جميع طاقاتكم في اتّهام الآخرين ولكن ... ؟
ففي هذه اللحظة كنت قد خرجت من حلقته الساحرة فلم أتمكّن من استيعاب هذا السؤال الأخير!

المراجع

1- كليات إقبال أردو الفيصل ناشران وتاجران كتب لاهور ص:265
2- كليات إقبال أردو الفيصل ناشران وتاجران كتب، لاهور ص: 246
3- بالِ جبريل ص: 48 في ضمن كليات إقبال أردو السابقة الذكر
4- ضربِ كليم ص: 453 في ضمن كليات إقبال أردو المذكورة أعلاها
5- نظرة العلاّ مة محمّد اقبال الى الفنّ، انعام الحق غازى مجلّة الدّراسات الاسلاميّة، العدد: 4 اكتوبر-ديسمبر 1996ص: 70
6- المرجع السابق: ضربِ كليم ص: 100 و ص: 111
7- المرجع السابق: بال جبريل ص: 53
8- المرجع السابق : ضربِ كليم ص: 118-119
9- ضرب كليم ص: 497-498 في كليات إقبال أردو، الفيصل ناشران وتاجران كتب، لاهور
10- Javed Nama (English) Iqbal Academy Pak. Lhr. P-4
11- المرجع السابق: 47
12- The Reconstruction of Religious Though In Islam. Ashraf Press Lahore PP: (146-79) (1954)
13- المرجع السابق: 178
14- كلياتِ إقبال : ارمغان حِجاز ص: 175

15- كليات إقبال : بال جبريل ص: 49-50
16- بال جبريل ص: 5
17- Stray Reflections by Allama Iqbal P: 91, Iqbal Academy Lahore 1992
18- بال جبريل ص: 134
19- زنده رُود از جاويد إقبال – شيخ غلام علي أيند سنـز لاهور جلد : 3، ص: 151
20- ضربِ كليم ص: 62
21- المرجع السابق ص: 450